مجلة النكبة التي لم تنتهِ

نحو عودة لاجئين فلسطينيين
العدد ٦، أيار ٢٠١١

موديل للتصحيح

حنّا فرح كفر برعم

تحليل: نورمه موسي
ترجمه من العبرية : رؤى ترجمة ونشر

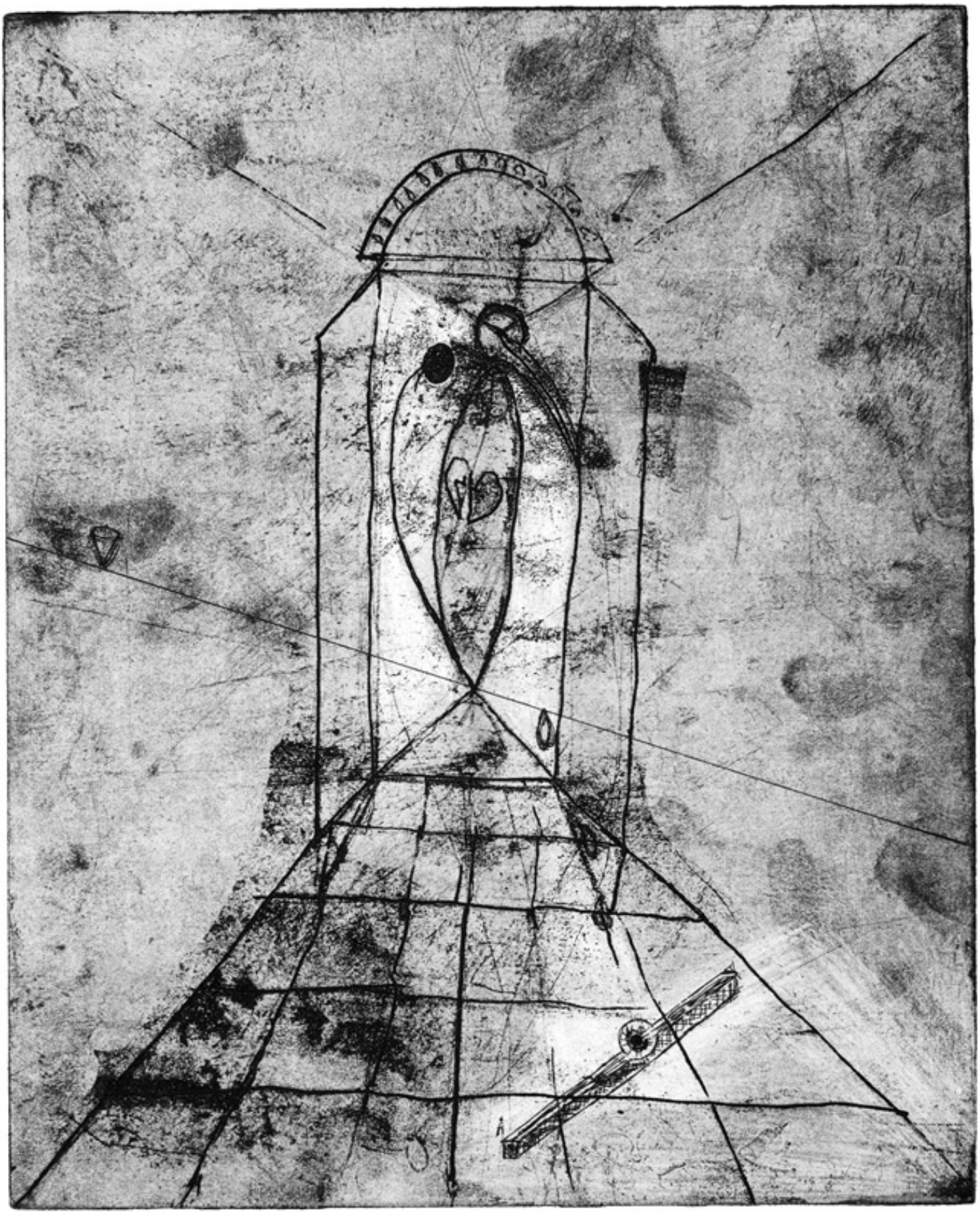

ألوسط, ٢٠٠٧

حنّا فرح يبني برعم، القرية التي وُلد فيها أبوه وجدّه، والتي لم يسكن فيها بنفسه أبدًا. إنّه يبنيها مُجدّدًا بمبادرة شخصيّة، يُرسّخها في بطاقة هويّته، ويشيِّدها على أنقاضِها بواسطة موديلات، نقوش، نشاطات مختلفة، أعمال فيديو وصور. إنّه ينسج هذه كلّها إلى قرية جديدة، موجودة كشظايا ذكريات وأحلام، وفي الوقت نفسه كاقتراح صريح وعمليّ للعودة. ينضمّ نشاط فرح إلى سلسلة طويلة من المشاريع الجماهيرية، الفردية، الفنّيّة والقانونيّة التي بادر إليها أهالي كفر برعم، ولا يزالون، لهدف النضال ضدّ محو القرية والدفع قدمًا نحو العودة إليها.

لاجئو برعم مُشتّتون. قسم منهم لاجئون داخليّون في دولة إسرائيل – في الجشّ، القرية المُجاورة، حيفا، عكّا، الناصرة، تل أبيب ويافا؛ وقسم منهم يعيش في لبنان وفي أماكن أخرى من العالم. بقيت على أرض كفر برعم اليوم كنيسة ومقبرة مستخدمتان، وعدد ممّا تبقّى من البنايات الأخرى. لقد أعلنت السلطة عن هذا الجزء من القرية، الذي شهد في الماضي حفريّات أثريّة، منطقةً عسكريّةً وحديقةً وطنيّةً١ معًا: فالحديقة الوطنيّة متداخلة في منطقة عسكريّة مُغلقة، ويوجد تصريح دخول مفتوح إليها. تغطّي الحديقة الوطنيّة بقايا كفر برعم، وتُخفيها تحت أشجار تجتاح القرية. وبهذا، قامت الدولة بنهب القرية من أصحابها مرّتين: في المرّة الأولى حين طردتهم، وفي الثانية حين لم تسمح لهم بالعودة. كان منع العودة مُدعّمًا بادّعاء أنّ المنطقة المعنيّة هي عسكريّة مُغلقة – حديقة السلطة الإسرائيليّة الوطنيّة. لقد تحوّلت الإشارة لمواقع كـ"منطقة عسكريّة مُغلقة" إلى إستراتيجيةً عمل تقوم السلطة بواسطتها بإحكام سيطرتها على الحيّز منذ عام ١٩٤٨. في هذه الحالة، لم تأتِ الإشارة للموقع كـ"منطقة عسكريّة مُغلقة" لغرض الإشارة إلى الخطرَ الملموس الذي يهدّد مَن يقترب من الموقع – المنطقة المعنيّة هي حديقة وطنيّة – وإنّما لغرض الإشارة إلى الخطر المُحدق بالسلطة عند الدخول، عند عودة اللاجئين إلى القرية.

جرى احتلال كفر برعم يوم ٢٩ تشرين الأوّل ١٩٤٨ في إطار "عمليّة حيرم"، ومنذ ذلك الحين وحتى اليوم تتواصل عملية هدم القرية. بعد الاحتلال في عام ١٩٤٩، وقع نهبٌ منظّم لممتلكات السكّان ولحجارة بيوتهم؛ في عام ١٩٥٣ نُفّذ تفجير عسكريّ من الجوّ لبيوت القرية، على الرّغم من – وربّما لسبب – أنّه في تمّوز ١٩٥٢ قرّرت المحكمة العليا أنه ليس هناك أيّ سبب يحول دون عودة السكّان إلى القرية؛ تواصل هدم القرية في عام ١٩٦٥، مع تجديد أعمال الحفريّات الأثريّة التي أجراها فيها باحثون ألمان مطلع القرن العشرين؛ في عام ١٩٧٢، على أثر محاولات السكّان المُتكرّرة للعودة إلى قريتهم، أعلن موشيه ديّان، وزير الأمن آنذاك، عن قريتي برعم وإقرث المجاورة منطقةً عسكريةً مُغلقةً، وفي عام ١٩٧٧ أعلنت حكومة إسرائيل عن قرية كفر برعم ومحيطها حديقةً وطنيةً؛ في عام ٢٠٠٠ جرى هدم بيوت إضافيّة على أطراف القرية، في إطار أعمال لشقّ شارع مُوصل إلى مفرق سعسع.

مشوّشة ٩، ٢٠٠٧

ضيافة في البيت, ٢٠٠٣

حتى عام ١٩٤٨، ارتكز اقتصاد أبناء وبنات كفر برعم على الزراعة. كانت أراضي القرية مُقسَّمةً إلى قطع صغيرة وأخرى متوسّطة، ربّى السكّان فيها التينَ، الزيتونَ، الحبوبَ والتبغ، في الأساس لغرض الاستهلاك المحلّي. ربطت القرية علاقاتٌ تجاريّة مع صيدا والطيرة في لبنان، وحيفا وصفد في فلسطين، ومع القرى المُجاورة سعسع، فارة، الراس الأحمر والجشّ. حتى عام ١٩٤٨، عمل قسمٍ من سكّان القرية في القطاع العام، حيث شغّلتهم سلطات الانتداب. وفقًا لوثائق بريطانيّة، وصلت مساحة كفر برعم الشاملة إلى ١٢٢٥٠ دونمًا. كانت القرية تنقسم إلى حارتين رئيسيّتين، الشرقيّة والغربيّة، وبينهما كنيسة السيّدة العذراء. كان في القرية مدرستان: واحدة عامة رسميّة أُسّست في فترة الانتداب البريطانيّ، والثانية مدرسة كنسيّة.٢ إحدى الغرف في بيت جدّ فرح، التي كانت تقع إلى جوار بيت العائلة وكان لها مدخل منفصل، كانت مُؤجّرة للمدرسة وشكّلت واحدًا من صفوفها. في هذه الغرفة ولد أبوه وفيها توفّيت جدّة أبيه.

الغرفة بمثابة نقطة انطلاق وتجمّع في عمل فرح، حيث إنّه ينطلق منها ويعتكف في داخلها. وهكذا، فإنّ الغرفة والقرية تشكّلان محورين مركزيين في عمل فرح: الغرفة هي التفصيل المُتميّز، قسم من بيته، حيّز خاص، لكنّها، أيضًا، قسمٌ من القرية، أثر ظلّ مفتوحًا ومقتحمًا. القرية هي الحلقة الثانية التي تحيط بالغرفة، تحتويها ومحتواة فيها. الغرفة هي المكان الذي يعود إليه فرح مرّةً تلوَ الأخرى كي يعمل في داخلها.

دخل حنّا فرح كفر برعم الغرفة وهو يبعث فيها حياة: تارةً يملأها بأحواض حمراء تجمع مياه الأمطار، وطورًا يزرع فيها شقائق النعمان وأخرى يغطّي نوافذها بمكعّبات سكّر، يدعو فرح أشخاصًا آخرين، أصدقاء وأقرباء، إلى المشاركة في كل واحد من النشاطات وإلى إحياء الغرفة، معًا، ومن خلالها إحياء القرية. وهو إحياء بمفهومَي بعث الحياة: دخول حياة إنسانية تتفاعل داخلها، وكذلك الصورة التي تتلقّى الغرفة الحياة بها، انبعاثًا، تنجح في خلق تطوّرها من داخلها. النشاطات هي عمل ضمن سيرورة، عمل متواصل يمتدّ على فترة سبع سنوات.٣ بسبب وجود القرية تحت رقابة الجيش وسلطات الطبيعة والحدائق، تُحظر إقامة مبنى ثابت يتيح السكن في القرية. وهكذا، فكلّ واحد من النشاطات يتواصل ليوم كامل، يوم يتمّ فيه تركيب الأرضية وتنفيذ النشاط، تعود الغرفة في ختامه إلى ما كانت عليه، غرفة فارغة، فراغ مُتخيّل. لربّما أنّ النشاطات لا تختفي: فهي تترك أثرها في النشاط القادم، تواصل التدحرج، الحياة بعد انتهائها، كنسيج جسديّ عضويّ يعرف كيف يداوي نفسَه ويُنبت من داخله أعضاء جديدة.

أولى مراحل العمل لدى فرح هي مرحلة المسح. وهو يتأمّل في صور جويّة إسرائيليّة وبريطانيّة، وبدلاً من أن يرى فيها خارطة عسكريّة تحتوي على طرق مرور، مواقع إطلاق نار أو دروب فرار٤ فإنّه يقوم بتحليلها، ويستلّ منها حركة القرية واستمراريّتها المُمكنة. فرح لا يتبنّى

يوم ماطر، ٢٠٠٣

نظرة المُصوّر الفوقيّة العسكريّة الذي صوّر القرية للمخابرات البريطانيّة أو الإسرائيليّة، بل يُصرّح: "أنا أرى في الصورة حياةً، أرى الحياةَ التي كانت والحياة التي كان يمكن أن تكون". من خلال التحليل ينجح فرح في إجراء تفاوُض مع النظرة الجَويّة المخصّصة لأغراض عسكريّة؛ وهكذا، بدلاً من استخدام الصور كأدواتِ سيطرة فهو يستخدمها كأداة مساعدة للتفكير والبناء ويرسّخ فيها دعوة مدنيّة.

من خلال الصور الجويّة ومن خلال شهادات، ذكريات وتأمّل معمّق فيما بقي، يستعيد فرح مبنى القرية الذي بزغ من نواة مرصوصة من البيوت المبنيّة الواحدَ لصق الآخر. حياة العائلة والمجتمع تطوّرت بشكل عضويّ، وغالبًا ما انتظمت حول باحة مشتركة. كانت قطع الأرض التي يملكها السكّان منتشرةً حول القرية على مسافات مختلفة. في الموديل الذي بناه فرح للتطوير المستقبليّ للقرية، يستعيد النسبة بين المباني والأراضي الزراعيّة، ويُموضع منطقة السكن المستقبليّة حول نواة القرية التاريخيّة، بحيث تتواصل المباني الجديدة بشكل دائريّ لتضفي على القرية التي كانت شكلاً دائريًّا. ويستخلص فرح من خلال تحليل تطوّر

١٩٤٩/١٠/٨

البناء الجديد في قرية الجشّ المُجاورة ما يخصّ احتياجات العائلات التي تبني بيتها في المنطقة اليوم، ويترك حول مباني السكن الجديدة مساحات فارغة. تظهر الأراضي الزراعيّة والمباني الصناعيّة في الموديل الذي يقترحه فرح، في الدائرتين الثانية والثالثة حول الدائرة المبنيّة من القرية.

بقايا القرية القديمة موجودة في الموديل الذي وضعه فرح داخل القرية الجديدة وكقسم منها. إنّه لا يقوم باستعادة القرية، بل مسار حدودها. لا يُبقي على الآثار كما هي بل ينمّي من داخلها مباني جديدة. يقترح فرح موضعة مركز القرية الثقافيّ والجماهيريّ في نواة القرية التي تكتنز داخلها ذكريات الناس الذين عاشوا فيها وتحوّلوا إلى لاجئين. اللجوء سيكون حاضرًا فيها كجزء من هُويّة المكان، لكنّه لن يسيطر عليها؛ عوضًا عن ذلك سوف تتحوّل إلى قسم من حياتها اليوميّة. إذًا، لا يقوم فرح بفعل حفظ-استعادة، بل يبتكر شيئًا جديدًا من ذاكرة المكان.

١٩٥٦/٩

إنّه يبتكر شروط إمكانيّة الابتكار والحياة الجديدة.

وفقًا لتخطيط فرح، سيشكّل أحد المباني في مركز القرية ديوانًا، مُلتقًى يقيم فيه الأهالي مناسبات عائليّة واجتماعيّة، مثل أعراس، محاضرات أو جنازات؛ مبانٍ أخرى ستستخدم كمجلس، مكتبة، مدرسة، ستوديو فنّانين، مقهى، متحف تاريخيّ، جاليري فنون، قاعة سينما وغيرها. بدلاً من نصب تذكاريّ ستؤلّف بقايا القرية القديمة نواةَ القرية المُتجدّدة ومركزًا للإبداع الجديد.

رغم أنّ العملِ التخطيطيّ الأساس لدى فرح يتمحور في بناء نواة القرية، فإنّ تخطيطًا كهذا لن يتسنّى من دون تخطيط البيئة. لا يمكن لفرح الاكتفاء بإعادة بناء المركز الجماهيريّ، فهو بحاجة إلى بيوت سكنيّة

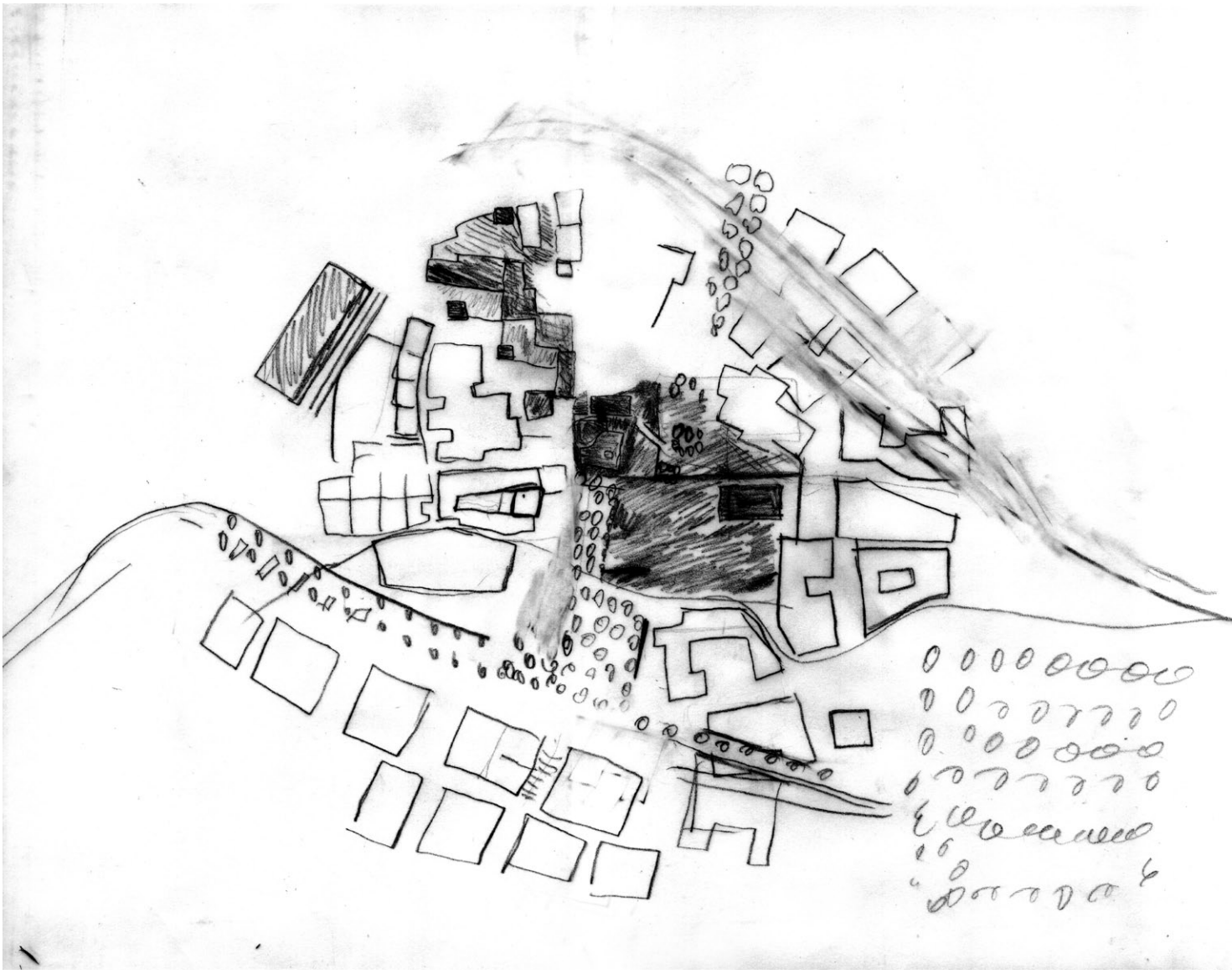

تخطيط أوّلئ للقرية ٦, ٢٠٠١

– حتى لو أنّها تظهر ضمن تخطيط تمهيديّ فقط، كموديل ثمّة حاجة في مواصلة تطويره. فمن دون بيوت خاصة لكلّ عائلة لا يمكن تطوير المركز الثقافيّ والجماهيريّ. التواجد معًا في المكان يصبح مُمكنًا فقط في اللحظة التي تُلبّى فيها الاحتياجات الأساسيّة – البيت والأمان في المكان.

في الموديل، لا يعود فرح إلى القرية التي كانت عام ١٩٤٨، بل إلى إمكانية تشكيل القرية جزءًا من المكان الذي اقتلعوها منه. يسعى فرح للنظر إلى المكان وفهمه. يسعى إلى أن يتيح في داخله إمكانيّة عودة من تحوّلوا إلى لاجئين، وإمكانية أن يكون مَن يعيشون فيه اليوم – نساء ورجال من كيبوتس برعام وموشاف دوفيف – كجزء منه. القرية التي كانت رمزًا تتحوّل إلى قرية عينيّة، والعودة إليها مُمكنة، لأنّ فرح يخطّط فيها حياة فعليّة.

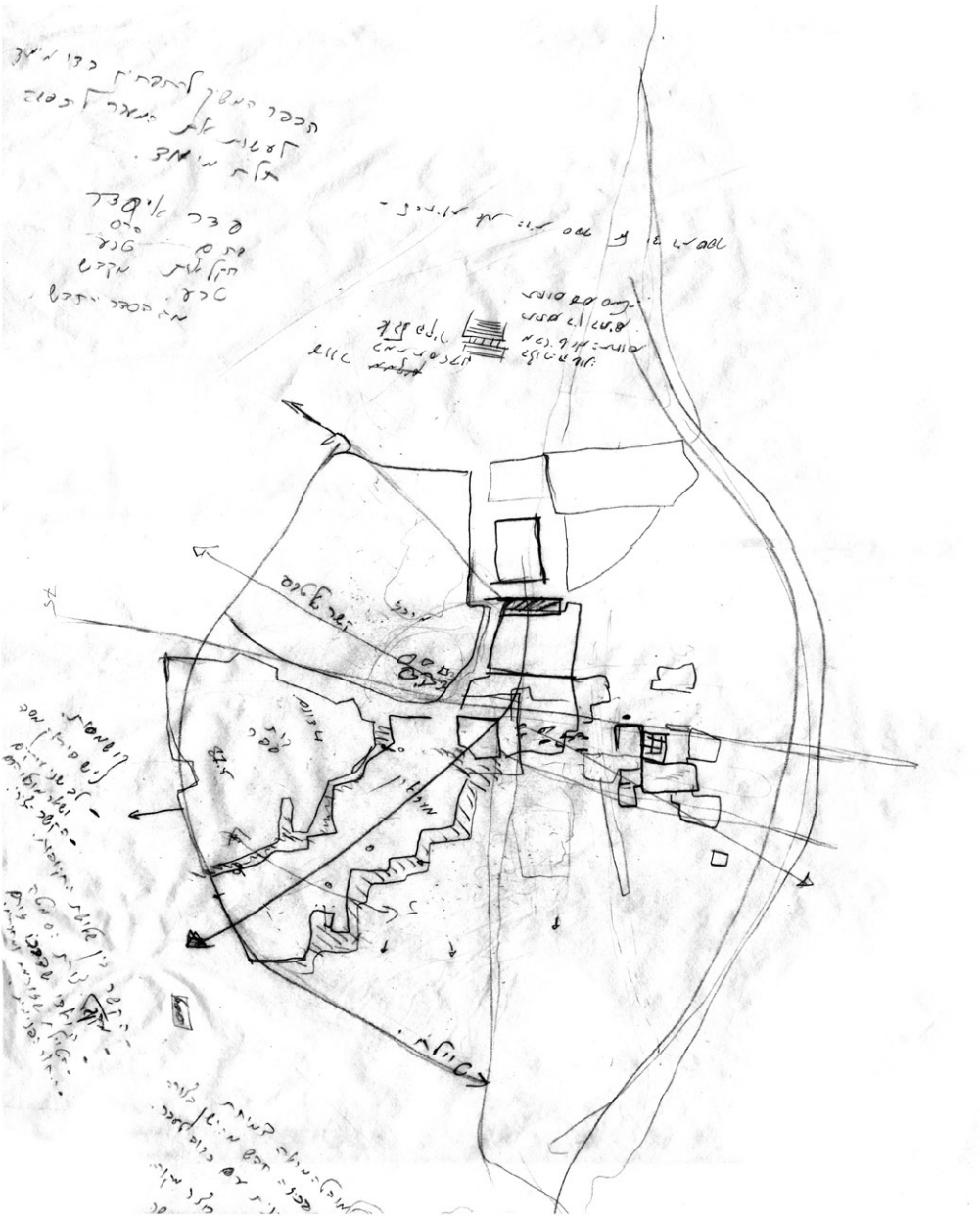

تخطيط أوّلئ للقرية ٣, ٢٠٠١

لأجل إنشاء مركز ثقافيّ يستخدمه أهالي القرية والقرى والبلدات المجاورة – كيبوتس برعام، موشاف دوفيف، كيبوتس سعسع، قرية الجش، قرية سعسع، قرية فارة، قرية الراس الأحمر وبلدات أخرى في الجوار – سيتوجّب على أصحاب البيوت أن يتنازلوا، لأجل المجتمع، عن ممتلكاتهم الخاصة في مركز القرية وعن الحلم ببيت العائلة الأصليّ. فرح يقترح التنازل إراديًا عن البيت الخاصّ مقابل بيت في الدائرة الثانية التي تحيط بمركز القرية. فرح يبني هذه البيوت على قطع أرض متساوية في مساحتها – أراضٍ تمّ تقسيمها مُجدّدًا. قسمٌ من الأراضي كان في السابق

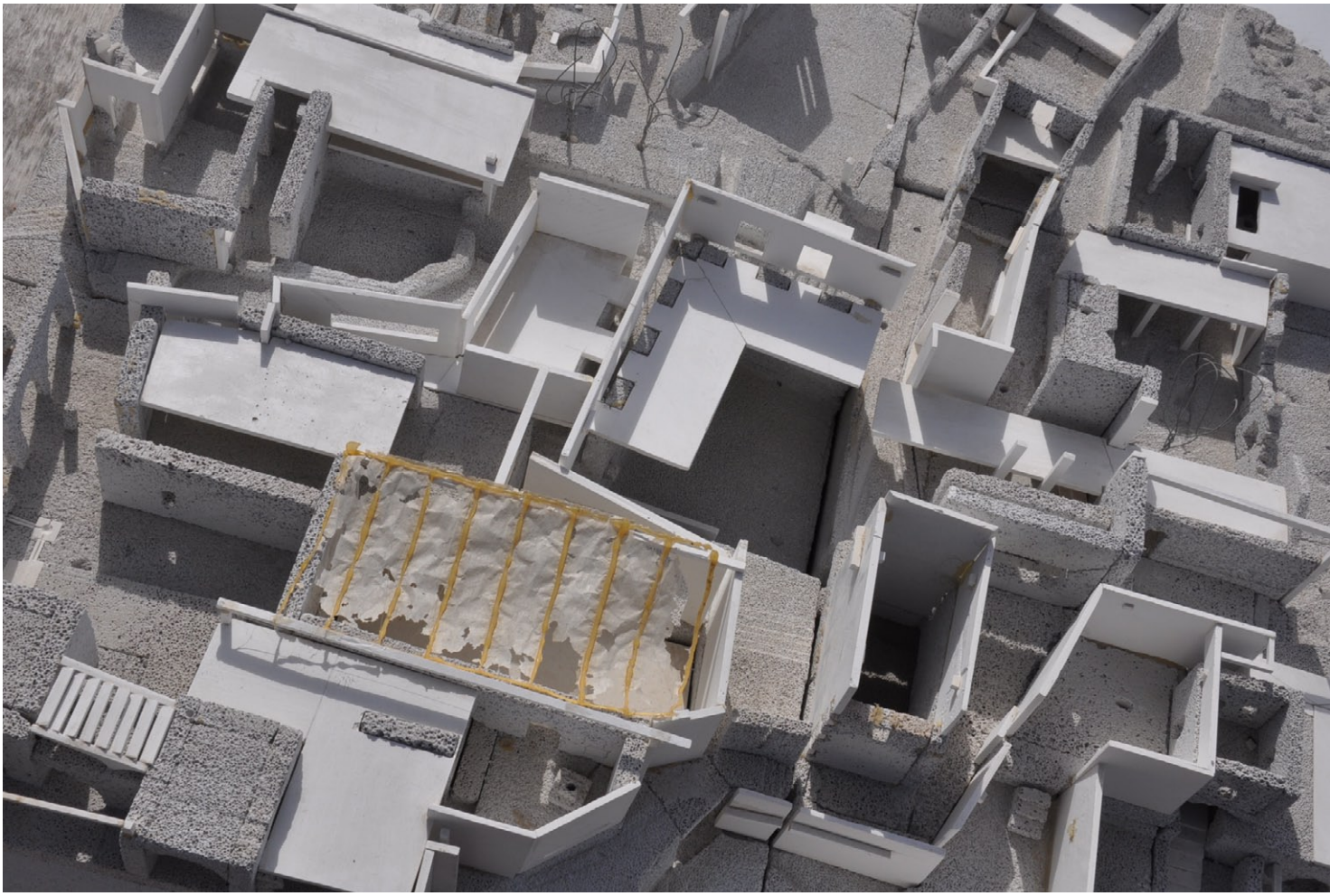

موديل للتصحيح, ٢٠١٠

أرضَ مشاع – أرض مراعي القرية المشتركة.٥ هذه الأراضي كانت تابعةً لجميع سكّان القرية، حيث استخدموها بشكل تناوبيّ وفقًا للاحتياجات المختلفة. إنّ وجود مصطلح المشاع في لغة وثقافة أهالي كفر برعم لربّما يمكّن فرح من الافتراض بأنّ التنازل عن البيت الخاصّ مُمكن من جهتهم من أجل إيجاد حيّز مُشترك، لائق، مُحترَم ومحترِم.

إنّ وجود حيّز كهذا ليس أمرًا مفهومًا ضمنًا. اللاجئون الذين يعيشون في مخيّمات لاجئين في لبنان، مثلاً، يضطرّون إلى تقاسم حيّزات مُشتركة مُؤقّتة، مُكتظّة وعشوائيّة في المُخيّم المزدحم جدًّا من دون حيّز مشترك. إنّ ازدحام الحيّز المُشترك يضيّق من إمكانية وجود مدنيّ سياسيّ، إذ يضطرّ اللاجئون الفلسطينيون إلى الصراع عليه يوميًّا منذ نحو ستّين عامًا. في الحيّزات التي ينجح اللاجئون في خلقها داخل المُخيمات، على الرّغم من كلّ شيء، يقومون بالتفاوض مع بعضهم البعض ومع السلطة. وهكذا ينشئون حيّزًا سياسيا يظلّ منقوصًا، لأنه لا توجد مواطنة للاجئين في قسم من الدول التي يعيشون فيها، ومواطنتهم منقوصة في دول أخرى.

موديل للتصحيح, ٢٠١٠

في حالة برعم، مثلما في قرى أخرى لاجئوها منتشرون في العالم، لا تكفي الحيّزات المشتركة فيها لاحتواء ذرّية القرية التي يصل تعدادها إلى ٦,٠٠٠ إنسان. وحيث ينجحون في هذا، يقيمون حيّزًا مُشتركًا، أيضًا، في احتفال اجتماعيّ في ساحة الكنيسة مرّة في السنة – في عيد الفصح، عيد الانبعاث. بعد الصلاة، ينزل أهالي القرية من الكنيسة الواحدَ تلو الآخر، يتقدّمهم من فقدوا أحد أقربائهم خلال السنة المنصرمة. أوّل النازلين يقف في الباحة، ومن ينزل بعده يصافحه ويقف إلى جانبه. وهكذا ينزلون جميعًا تباعًا الواحد تلوَ الآخر، رجالاً ونساء، يتصافحون ويقفون الواحد إلى جانب الآخر في حلقات من المصافحة.

من خلال موديل البناء المُجدّد للقرية وللمركز الثقافي فيها، لا يقوم فرح بإعادة سكّان القرية إليها فحسب، بل إنّه يؤسّس لهم ظروف

إمكانية حيّز مشترك، حيّز سياسيّ من القرية وفيها. فمن أجل إنشاء حيّز مشترك ثمّة حاجة في حيّز حقيقيّ، مُستقرّ، ثابت وآمن. حيّز عامّ يتسنّى فيه العيش معًا للجميع، العيش المشترك للأهالي – والذي حُرم منه اللاجئون خلال سنوات التشريد. النشاطات التي يقيمها فرح في الغرفة في القرية تعود لتكمّل الموديل، تبعث فيه الحياة. وهي تشكّل ما يشبه استمرارية لطقس المصافحة التقليديّ، وكذلك إطلالة على ما يمكن أن يتطوّر مستقبلا في مركز القرية – مركز ثقافة وضيافة يخدم سكّان المكان، من جيران وضيوف. إنّه فضاء مشترك للإبداع وللعمل السياسيّ، يمكن أن يشارك فيه، أيضًا، لاجئون ممّن قرّروا عدم العودة إلى القرية للعيش فيها بشكل دائم.

اليوتوبيا هي نوع من التفكير العينيّ الذي يستوجب تخطيطًا مفصّلاً.٦ إنّها ليست فكرة مجرّدة غير قابلة للتحقّق، وإنّما وصف لموقع عينيّ يضمّ حياة كاملة. اليوتوبيا تظهر على النقيض من، أو كاعتراض على، ظروف وإمكانيات الواقع الراهن. لهذا السبب فقط تعتبر "وهمًا". في عمل فرح هناك انسجام لكلّ من أبعاد العمل الفعليّ والعمل اليوتوبيّ من هذا النوع. البعدان يستوجبان تخطيطًا مفصّلاً. إنّ تخطيط قرية لأناس ليس لديهم حتى مواطنة أو إمكانية للوصول إلى المكان، قد يظهر كفعلٍ غير عقلانيّ تقريبًا، أو كفعل مبتور من الواقع السياسيّ على الأقلّ؛ على الرغم من هذا، ينطوي اقتراح فرح على إمكانيّة عينيّة ليس لبناء القرية فحسب، وإنّما لتسوية سياسيّة أخرى: تسوية سياسيّة تضمّ في إطارها عودة اللاجئين إلى الأماكن التي طُردوا منها، أو إلى أماكن أخرى يختارون العودة إليها. فرح يضع عودة اللاجئين بوصفها معطًى، ويخرج إلى مسيرة التخطيط كأمر مفهوم ضمنًا. بفضل العينيّة التي يفرضها، بمقدور التفكير اليوتوبي أن يتحاشى المصيدة التي يخبّئها له الخوف من عودة اللاجئين. ففي هذا الموديل يبيّن فرح أين يمكن أن يعود لاجئو برعم، أين يعيشون، إلى جانب مَن، وأية إمكانيّات ستُفتح أمام سكّان المنطقة بكاملها. موديل التصحيح الذي يقترحه فرح يشكّل فرصة لحلّ مشكلة اللاجئين والتأسيس لمواطنة أخرى، لا تشير فقط إلى العلاقة بدولة القومية، بل إلى العلاقة بالشكل الذي يتقاسم فيه البشر الحيّز المشترك بينهم.

1 קדמן נגה, בצדי הדרך ובשולי התודעה, דחיקת הכפרים הערביים שהתרוקנו ב-1948 מהשיח הישראלי. ספרי נובמבר, 2008.

2 Returning to Kafr Bir'im. Badil Resource Center, 2006.

3 النشاطات مشروع مشترك لفرح وللفنّانة هيلا لولو لين.

4 אזולאי אריאלה, אלימות מכוננת 1950-1947: גנאולוגיה חזותית של משטר והפיכת האסון ל"אסון מנקודת מבטם". רסלינג, 2009.

5 خلافًا للأرض المفروزة، المقسّمة الخاصة

6 شكرا لليئات بريكس أتجار على هذا التحديد.

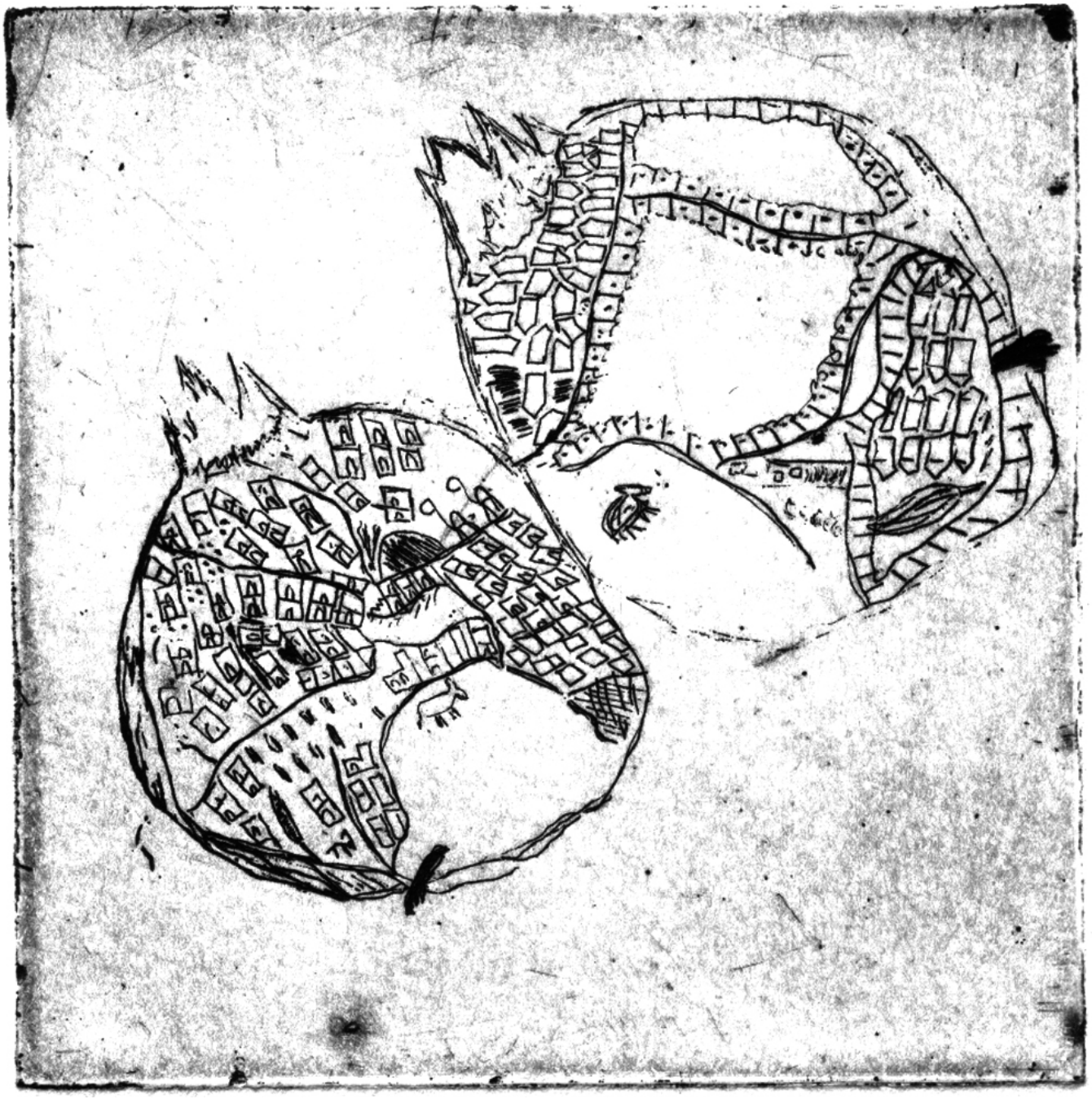

حبّ الرمّان، ٢٠٠٩

سِدق – مجلة النكبة التي لم تنتهِ، العدد ٦، أيار ٢٠١١
نَحو عودة لاجئين فلسطينيين

هيئة التحرير: عوفر كهانا، أُسنات بار- أور، أيوب أعمر، نورمه موسي، إيتن برونشطين، تومر جردي، عمر الغباري
المحرر: تومر جردي
تصميم: عوفر كهانا وأسنات بار- أور، فرهسيه
إصدار: جمعية "زوخروت" (ذاكرات)
تحرير لغوي وتنقيح: عمر الغباري
الناشران: فرهسيه، زوخروت

طُبعت أعمال الحفر في ورشة الطباعة – القدس، وفي مركز جوطسمان للحفر الكابري
تطوير الموديل والإنتاج: حنّا فرح-كفر برعم، تمير هدادي، وسام عقل، هيله لولو لين
تصوير موديل للتصحيح: نيلي أصلان
فعاليات: حنّا فرح-كفر برعم وهيلا لولو لين
تنظيم وإنتاج الفعاليات: وسام عقل، حنّا فرح كفر برعم، هيله لولو لين